

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

للأصول العربية في مصر تاريخ طويل، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهجرة القبائل العربية التي تدفقت على مصر مع الفتح العربي لها، إبان خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الفتح الذي تحقق على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، الذي ضم جيشه عدة قبائل بدوية، دفعها الحماس لدينها الجديد - الإسلام - إلى رفع رايته خارج حدود الجزيرة العربية.

وقد أصبحت مصر منذ ذلك التاريخ قطب جذب قوي لهذه القبائل العربية وبدأ أهل البادية يرتحلون إليها؛ إما طلباً للكلاً والمرعى، وإما فراراً من وطأة الحروب بين القبائل وبين بعضها البعض، وإما لأسباب أخرى مذهبية أو سياسية لا سيما أن مصر لم تكن مكتظة بالسكان، ومن ثم لم تقلقها هذه الهجرات، وقد توالى هذه الهجرات طوال العصور الإسلامية إلى أن وصلت إلى قمة نزوتها في العصر الفاطمي؛ حيث تكاثرت البدو، وانتشروا في أطرافها، وفي مناطقها الرملية وفي نوء التلال والروابي، وهي المناطق التي كانت تتلاءم مع طبيعتهم الصحراوية أكثر من ملائمة اللانديسكي الكلاسيكي لوادي النيل، الذي يتكون من تربة سوداء تغمرها مياه الفيضان، وأنشأوا لأنفسهم تجمعات فوق الصحراء وعلى ضفتي النيل، ثم أصبح تركزهم يشكل مساحات واسعة في الشرقية والبحيرة وعلى الساحل الشمالي الرملي، وعلى الشريط الشمالي الغربي المسمى بالجفار (منطقة العريش حالياً) وفي الصحراء الشرقية، وفي الواحات (انظر اللوحتين ١، ٢).

وكان هؤلاء البدو من العرب الرُّحَّل الذين وفدوا من شبه جزيرة العرب والشام والعراق، وعاشوا بعد ذلك بين ظهرانينا، ومارسوا حياتهم على أرضنا بطريقة لا تختلف في كثير أو قليل عن حياتهم الأولى في بادية العرب؛ ولكن اختلاطهم بفلاح مصر قد أدى إلى انصهارهم في بوتقة مصر بعد صراع عنيف

مع ولادة الأمور الذين كانوا يخشونهم ويعتبرونهم مجرد عنصر مقلق للراحة والأمن، يستفاد منه بقدر الإمكان؛ ولكن لا يُعطى سلطاناً!!.

ولقد عرف العرب "مصر" منذ القدم، ثم رسخت في أذهانهم منذ نزول القرآن الكريم على رسولنا النبي المصطفى ﷺ، فقد جاء في هذا الكتاب المكنون عدة آيات في أخبار مصر، أوردها المؤرخون كابن زولاق وابن إياس وغيرهما في مؤلفاتهم. فقد قال ابن زولاق في كتاب "فضائل مصر وأخبارها":

"إن الله سبحانه وتعالى ذكر مصر في ثمانية وعشرين موضعاً. وقيل: بل أكثر من ثلاثين موضعاً، كنايةً وتصريحاً.

أما ابن عباس - رضي الله عنهما - فقد قال: سميت مصر بأرض في عشرة مواضع من القرآن العظيم.

وقيل: ذكرت في اثني عشر موضعاً من القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا مَا سَأَلْتُمْ ﴾ (البقرة: ٦١)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ (يوسف: ٢١)، وقوله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَائِينَ ﴾، (يوسف: ٩٩)، وقال الله عز وجل حكايةً عن فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الزخرف: ٥١).

وقد أكدت الأحاديث الشريفة فضائل مصر، ومنها ما أخرجه عبد الرحمن بن عبد الحكم^(١) في "فتوح مصر وأخبارها": أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صِهْرًا ونَمَّةً »، وفي رواية: « فإن لهم نسباً وصِهْرًا »^(٢).

(١) فتوح مصر (ص ٢٠)، والحديث ذكره أيضاً المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٠٢٢)، وعزه إلى ابن عساکر.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ / ١٩٧٠ بزيادة على هذا.

وكان المقوقس عظيم القبط في مصر، أحد الملوك الذين بعث الرسول ﷺ برائله إليهم لكي يدعوهم إلى الإسلام، وما كان من المقوقس إلا أن رد على الرسول بكتاب جاء فيه: "من المقوقس عظيم القبط إلى محمد بن عبد الله، السلام، أما بعد، فإنني قد قرأت كتابك، وفهمت ما فيه، مما قد تدعوننا إليه من الإسلام، وقد علمت أنك نبي مرسل، وأنت خاتم الأنبياء، وقد أكرمت رسولك غاية الإكرام، وبعثت إليك على يده هدية".

وعندما أذن سيدنا عمر بن الخطاب - في سنة (١٨) هـ (٦٣٩م)، وفي نهاية المطاف - لعمر بن العاص بفتح مصر، وهو الذي كان قد دخلها في الجاهلية وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثرواتها وخيرها، فقد تحقق له حلمه بأن يرى مصر ولاية عربية إسلامية.

ومن هنا بدأت موجة الهجرة العربية إلى مصر، واستحضر كل حاكم عربي معه أو استدعى إليه أهله وعشيرته، وكان سكان مصر وقت الفتح العربي - كما هو معروف - أخلطاً من مختلف الأجناس من أقباط وروم وأكراد وأحباش وديلم، ورغم قلة عدد العرب الفاتحين بالنسبة لأهل البلاد، إلا أنهم قد عملوا على إقامة مدينة عربية إسلامية وسط هذا المحيط المصري القائم، وعدلوا عن اتخاذ الإسكندرية - حاضرة مصر زمن الرومان - عاصمة لهم، وأسسوا مدينة الفسطاط التي أصبحت حاضرة لمصر العربية، واتخذت كل قبيلة من القبائل التي دخلت مصر خُطّة لنفسها، وعرفت كل خُطّة باسم القبيلة التي نزلت بها، وبطبيعة الحال فقد سكنت مع هؤلاء العرب أقوام من أصل فارسي أو رومي أو يهودي، ولكن هؤلاء كانوا أقلية، أما الأكثرية التي سكنت تلك الخُطط فكانت من العرب، وخاصة عرب الجنوب أو اليمنية، وظل العرب يحتفظون بنسبتهم لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان، ولكن خلال القرن الثالث الهجري حل اسم الجهة أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص محل اسم القبيلة، ومنذ عهد المعتصم العباسي فقد العرب مركزهم في الدولة الإسلامية على إثر ازدياد نفوذ الأتراك، وإسقاط المعتصم للجند العرب من

ديوان الجيش، فانتشر العرب في ريف مصر واختلطوا بالمصريين، بل واشتغلوا بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأعمال التي كانوا يترفعون عنها من قبل، وكان ذلك عاملاً جوهرياً في الاتجاه التدريجي نحو الاستقرار، والتحول من الرعي إلى الزراعة، وتم تشجيع القبائل على هذا الاستقرار بواسطة سياسة "العطاء"، وهي المساعدات والمنح المالية المباشرة.

وفي أواخر المرحلة العربية في مصر، انزوى العنصر العربي على هامش السلطة وضعف مد القبائل الوافدة، ولكن الدولة الفاطمية - وهي أصلاً من العرب والبدو - جاءتهم بعصر ذهبي جديد فكثر القبائل الداخلة واتسعت أملاكها وزادت ثرواتها، ثم كانت الدولة الأيوبية بمثابة مرحلة انتقال بالنسبة لوضع القبائل العربية بمصر، حيث عامل صلاح الدين الأيوبي البدو العرب بحزم وقوة بقصد تحييدهم في صراعه ضد الصليبيين، على أن نقطة التحول الحقيقية في وضع وحال القبائل العربية كانت بلا ريب بداية العصر المملوكي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فقد رفض العرب حكم المماليك باعتبارهم عبيداً لا أحراراً، واعتبروا أنفسهم أصحاب مصر الحقيقيين، وأنهم أولى بالحكم، بينما نظر المماليك بدورهم إلى هؤلاء العرب باعتبارهم أجانب وجسماً غريباً عن مصر مثلهم لا أكثر، كما يقول مؤرخنا المقرئ.

وهكذا انكسرت شوكة العرب في عصر المماليك وانحطت هيبتهم وقلت أعدادهم إلى أدنى حد، بل وترك بعضهم مصر نهائياً إلى الجزيرة العربية أو السودان أو المغرب، وانسحب البعض الآخر من وادي النيل إلى أعماق الصحراء، والبعض الآخر تحول إلى الزراعة واستقر نهائياً، فقد كان الخيار في النهاية هو إما أن يظلوا بدواً فيرحلوا، وإما أن يصبحوا مستقرين فيبقوا، أي إما بين بدو مضطهدة أو استقرار مقبول.

وهذه - بإيجاز شديد - هي المراحل التي مرت بها هذه الموجة العربية في مصر، ويمكن القول، إذا ما أردنا تقييماً شاملاً لدور هذه الموجة ووزنها في تكوين

مصر البشري: إنه إذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافياً، وأسلموها دينياً، فإن مصر قد مصرتهم جنسياً، وتحول التعريب إلى تمصير، أي تمصير العرب، غير أننا ينبغي لنا أن ننظر إلى الفتح العربي والهجرة العربية إلى مصر كعملٍ نادرٍ خارق؛ لأن العرب إذا كانوا قد عربوا مصر لغوياً ودينياً، فقد مصرتهم مصر حضارياً ومادياً مع استمرار الإسلام واللغة العربية - لغة القرآن الكريم - يشكلان القوة الجاذبة المركزية لأهل مصر بعامه.

ومن الصعب جداً بل ومن المستحيل أن نقدر أعداد هؤلاء البدو الذين حضروا إلى مصر على مدى القرون العشرة، والتي امتدت من الفتح العربي وحتى الفتح العثماني لمصر عام (١٥١٧م)، وبفضل ما خلفه لنا القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١هـ) نستطيع القول بأن عدد القبائل البدوية التي جاءت إلى مصر منذ الفتح العربي وحتى العصر المملوكي، كان على النحو التالي:

١- تسع قبائل قحطانية كبرى، وما يقرب من (٢٩٠) بطناً من بطونها.

٢- خمس قبائل عدنانية كبرى، وما يقرب من (١٥٠) بطناً من بطونها.

٣- ثلاث قبائل بربرية كبرى، وما يقرب من (١٠٠) بطن من بطونها.

ولقد قامت هذه المجموعات بدور لا يستهان به في أسلمة مصر وتعريبها كما أن هؤلاء البدو قد تركوا آثارهم في كل مكان ذهبوا إليه في مصر، وما زالت عدة قرى ومدن في الوجه البحري والوجه القبلي تحمل أسماء القبائل التي نزلت هناك، مثل: بني حسن، ودار جهينة، والجعافرة، والأخوة، وسلطنة، وبني قريش، وبني هلال، ومغاغة، وبني عدي، وبني قرّة، وكفر فزارة... إلخ.

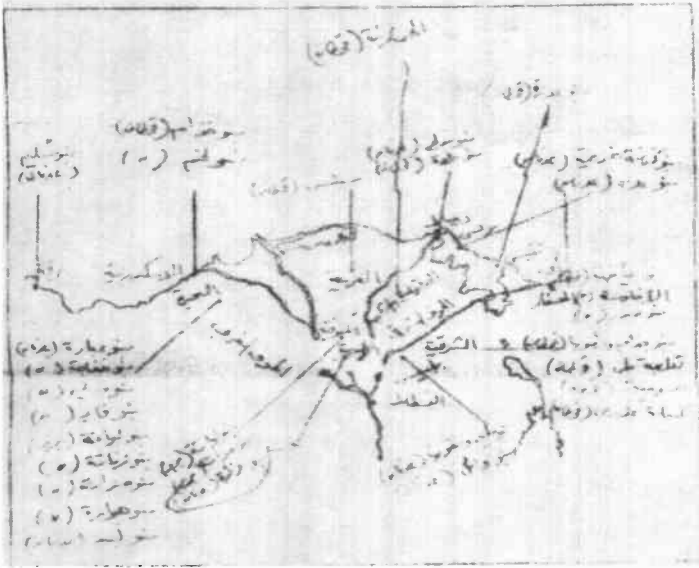
وقد تغلغل هؤلاء البدو في الحياة المصرية، ولم يقتصر نشاطهم على الرعي وتربية الخيول أو الزراعة، بل استخدمهم الولاة كفرق مساعدة في الحملات الحربية، كما كانوا يكلفون بأعمال الدرك، وهي الحراسة وحفظ الأمن في أطراف الدولة، بل أقاموا دواليب السكر في الصعيد، وعمل بعض أفرادهم في مناجم الذهب في وادي العلاقي.

لقد قدّم البدو لمصر خدمات جليلة وكان عطاؤهم كبيراً، سواء على المستوى البشري أو المادي أو المعنوي، وقد خضعوا بطريقة لا شعورية لسحر أرض مصر إلى درجة أنهم أصبحوا لا يرون في أنفسهم سوى أنهم قد صاروا مصريين، أو قل: صاروا مصريين منحدرين من أصول عربية!.

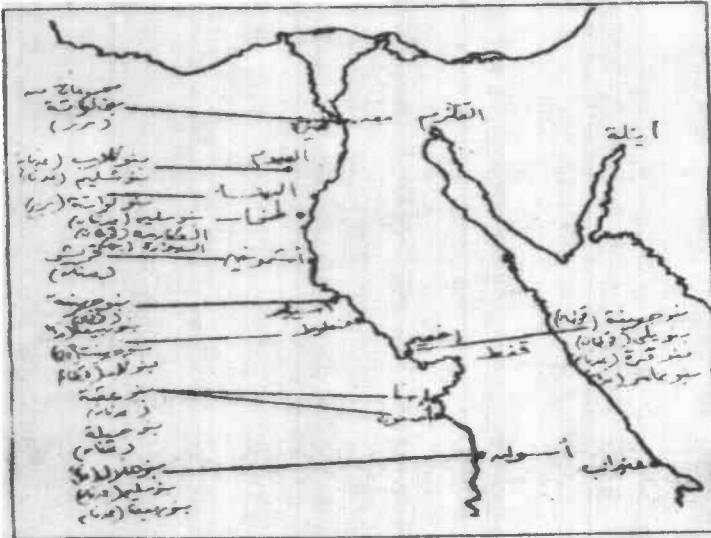
وقد جاء هذا الكتاب ليحاول إلقاء الضوء على هذه الحقبة الهامة، والبحث عن هذه الأصول العربية واستكشافها، والوقوف على حقائقها وتفاصيلها، والقيام بتأصيلها علمياً وتاريخياً.

والله ولي التوفيق،،

د. عبد الحميد صالح حمدان



للوحة رقم (١): توزيع القبائل العربية في مصر المصطفى



للوحة رقم (٢): توزيع القبائل العربية في مصر العليا